الطريق

قصة الأستاذ نجيب محفوظ

بقلم : توفيق حنا

الطريق هو رمز الحضارة المصرية كما قال شفتجلر . ونجيب محفوظ ـ عن همس الجنون حتى « الطريق » يسير فى طريق التعبير عن الشخصية المصرية ومحاولة الكشف عن الملامح والسمات او القسمات التى تتميز بها النفس المصرية .. ولعل اروع لوحة قدم لنا فيها نجيب محفوظ تفاصيل حياة النفس المصرية فى نصف قرن انتظم ثلاثة أجيال هى لوحة « بين القصرين » .. هذه اللوحة الحائطية الرائعة الشاملة التى نذكر ونحن نشاهدها لوحات رمسيس الثانى فى معبد ابيدوس وفى معبد ابى سمبل .

بطل رواية الطريق : آخر أعمال نجيب محفوظ هو « صابر » هو مصر كما كانت حميدة فى زقاق المدق هى مصر كذلك .. مصر فى لحظة عابرة من لحظات حياتها لحظة الحرب العالمية الثانية .. بينما صابر فى الطريق هو مصر .. مصر التاريخ .. مصر الروح .. مصر الكينونة الهائمة .. الباحثة عن ذات تتبلور بها وتتجوهر فيها .. مصر الوجود الباحث فى داب وفى جهد وفى صبر عن ماهية تحققه وتدعمه وتهب له التجدد والشباب والحيوية .. ولعل رواية الطريق ان تكون محاولة نثرية عصرية لحكاية اسطورة ايزيس واوزيريس . ولعل صابر هو حوريس ولعل سيمة عمران هى الصورة العصرية لايزيس .. ايزيس التى أفقدتها وشوهتها الحضارات المختلفة التى عاشتها ولم تهضمها ، ولعل هذا يفسر لنا لماذا عاشت سيمة عمران فى الاسكندرية المدينة اليونانية التى كانت جزيرة يونانية وسط الحضارة المصرية الوسيطة .. كما يفسر لنا لماذا دعاها نجيب محفوظ امراءة الليل . الليل الذى اراه رمزا لهذه الحضارات التى تعاقبت على مصر منذ أن فقدت شخصيتها واستقلالها .. منذ استيلاء الاسكندر تلميذ ارسطو على مصر .. هذا الليل الذى استمر خمسة وعشرين قرنا ..

ولعل سيد سيد الرحيمى هو اوزيريس .. وهنا يقوم صابر (حوريس) بالبحث عن ابيه وذلك لان الانتماء هو الضربة التى يدفعها مواطن القرن العشرين

الذى اختاره كولن ولسون عنوانا لعمله الضخم تعبير عن أقصى درجات الانتماء .. كمالان الخاطىء فى الدين هو أقرب البشر الى الله — وصورة الرفاف تأكيد للبعد التاريخى العميق الذى أراد نجيب محفوظ أن يلبسه محاولته الجسارة الجديدة « الطريق »

أما كريمة فهى امتداد صروري لايريس (بسيمة عمران) اذ على الانسان أن يعانق الليل بكل كيانه وبكل وجدانه قبل ان يستحق أو يعيش النهار .. والليل هو المرحلة الرومنتيكية الضرورية التى تقطعها الروح فى طريقها الى واقعية النهار والعمل والواقع .

اما الهام فهى الفجر البرعم فى وسط الليل الحالك ولهذا ارتبطت الهام — الفجر المنتظر — بالأب .. بالذات .. بالتاريخ .. بالمصير .. اذ أن اوزيريس هو أب لكل ما فى داخلنا من جمال وخير وسلام وكرامة وأمل .

ولعل الصحفى المخضرم هو توت اله الحكمة وهو صحفى صرير .. ولعل العمى هنا اشارة الى اطلاق نور البصيرة .. وما أصدق مخائل نعمة وهو يردد فى سوفية بقبه « اغمض جفونك تبصر » .

يقول نجيب محفوظ وهو يقدم لنا هذا الصحفى المخضرم على لسان الاستاذ محمد الطنطاوى الذى أرسلته الهام للدفاع عن صابر :

« الم تسمع عن الصحفى الذى كان يوقع عموده اليومى بامضاء الصحفى المخضرم . طبعا فلقد انقطع عن العمل منذ عشرين عاما ، وهو جارلى بمصر القديمة وكان قديما استاذى بكلية الحقوق ومن أعقد من عرفت فى الشريعة »

وقال الصحفى المخضرم وهو يتحدث عن سيد سيد الرحيمى : « سيد سيد الرحيمى ، الوجيه العمى الجميل ، وقد كان شابا فى الخامسة والعشرين ، أو نحو ذلك منذ ثلاثين عاما »

اما تفسير هواية سيد سيد الرحيمى الوحيدة وهى الحب فهى تشير الى هذه الحضارة التى نشرها أوزيريس ومعها الفن والضياء والزراعة ، بين سكان وادى النيل والتى نشرها بعد ذلك فى العالم كله .. ومع الحضارة وفر للناس — كل الناس الحرية والكرامة والسلام والخير .

ويحدثنا على لسان الصحفى المخضرم عن سيد سيد الرحيمى فى هذه الكلمات :

— « كان يروح كما كان يراقب ، كان يمارس الحب بشتى انواعه ، الحسى والصدرى ، ولا يعتق ناصحة أو مراهقة ، أرملة أو متزوجة أو مطلقة ، فقيرة أو غنية حتى الخادمات وحاملات الاقداح والصولات . »

ويحدث على لسان عن مهنة سيد سيد الرحيمى فقال « كان ومازال مليونيرا ، لا عمل له الا الحب وكلما وقع فى مأزق هاجر من مدينة الى مدينة مواصلا ممارسة هوايته » .

والدى وكذا ... ذهب اليه من عربة سيد سيد ... المحضرم قبل أن يسافر الى الهند .. كتاب « كيف تحتفظ بشبابك مائة عام » .. وهذا يشير الى تعليق المصريين بالخلود جسما وروحا ـ كما أهداه صندوقا فاخرا من الخمر المعتقة والخمر بمعناها الصوفى تطلق الروح من سجن البدن وتحمله يصل بالسماء . وأنا أرى بعد هذا كله ، وأرجو أن يسمح لى القارىء الصديق هذا الاندفاع او التطرف فى التفسير والفهم .. أرى أن هذه الرواية عبارة عن حلم كبير ؛ لعلها اروع الاحلام التى سجلها الادب الانسانى ، ولعلنا لو درسنا الطريق على أساس انه حلم لوجدنا التفسير الكامل لآلاف الرموز ولآلاف المشاكل والاشكالات الفنية .

يؤكد لى ان هذه الرواية حلم كبير هذا النص الذى جاء على لسان صابر وهو يتحدث الى الاستاذ محمد الطنطاوى المحامى : « الحكاية كلها كالحلم ـ جئت من الاسكندرية للبحث عن ابى فوقعت احداث عربيه ست فيها مهمتى الاصلية حتى وجدت نفسى اخيرا فى السجن .. » ولعل آخر جملة تالها صابر فى هذا الحلم تؤكد ارتماء الحالم فى احضان النوم وانتهاء الحلم الى الواقع اليومى :

« ليكن ما يكون .. »

ومحمد الطنطاوى هو الأخ الاكبر لاحسان الطنطاوى مدير ادارة الاعلان بجريدة « ابو الهول » وهى الجريدة التى تعمل بها الهام ، وكل قارىء لادب نجيب محفوظ يعرف ان الاسم يلعب دورا ايحائيا فى الشخصية التى تحمله .. ما الحكمة فى أن تحمل الجريدة التى تعمل بها الهام اسم ابو الهول .. وابو الهول هو حلم متعدد ـ رأس انسان وجسم اسد ـ منتهى القوة مضافة الى منتهى الحكمة ، والحكمة والقوة هما عنصرا الحضارة المصرية التى امتدت بدون انقطاع عشرة آلاف سنة ، فهى اطول الحضارات عمرا واعمقها ، واخصبها .

يبدأ هذا الحلم وصابر يناجى نفسه وهو فى السجن : « فى السجن وحدك ـ لا يزار من ليس له أهل .. والهام تخطر كالحلم وهى تعرف الآن الحقيقة ، شفيت ولا شك من الحب ولعنته .. فى سجن الموت تتحرر من علاقات الحياة كلها فلا تهمك الفضائح انت متحرر من الكبرياء والخجل كما كنت وانت فى الرحم ..»

وهذا البحث الذى قامت به مجلة الربيع مع نخبة من رجال الفكر ، يحدث استاذ فى الجامعة عن الزواج غير المتكافىء باعتباره المسئول الاول عن الجريمة وقال كاتب بوسيات صحيفة ان المسئول الاول هو الفقر ، هو الذى أغرى زوج كريمة الاول ببيعها الى زوجها الثانى وان كريمة شهيدة لصراع الطبقات وفوارقها .. وناقش استاذ بالخدمة الاجتماعية نشأة صابر فى احضان تاجرة أعراض وروائيها فى نفسه .. وقال استاذ علم نفس ان صابر مصاب بعقدة حب الأم وانه يمكن تفسير اندفاعه الاجرامى بأمرين مهمين فهو أولا وحد فى كريمة بديلا عن امه فاحبها ـ وان شعوره اصر على الانتقام لامه فقتل صاحب الصدق كرمز للسلطة وطمع فى مصادرة امواله كما صادرت الحكومة اموال امه .. وقال شيخ من رجال الدين ان المسألة فى جوهرها

مسألة ايمان مفقود ، وان صابر لو بذل فى البحث عن الله عشر ما بذله فى البحث عن ابيه لكتب الله له جميع ما طمع اليه عند ابيه فى الدارين .. »

وفى هذا الجزء الاخير سخرية ورفض لكل التفسيرات التى يمكن ان يلجأ اليها النقاد فى تحليل وتفسير هذه الرواية .. ولعل نجيب محفوظ يريد فى وعى وفى فكر ان يدفع النقد الى طريق جديد فيه عمق وفيه جهد وفيه صبر .. يرفض نجيب محفوظ هنا كل التفسيرات النفسية والاجتماعية والدينية وكأنه يشير ـ مجرد اشارة ـ الى طريق آخر لفهم رواية الطريق .

هذه الرواية حلم كبير ـ بدأ فى سجن .. والسدم والليل والكبت والحرمان جدران اربعة لكل سجين ولعل نجيب محفوظ اراد ان يساعدنا ان نرى فى طريقه حلما بأن اورد لنا هذا الحلم الرائع الذى عاشه صابر بعد ليلة حمراء مع كريمة .. ليلة حمراء أو بيضاء .. وانا اورد هنا هذا الحلم الرائع الذى عاشه صابر .

واقرر ان كل ما نلمسه فى هذا الحلم انما هو جزء من هذا العالم الحلمى الكبير الذى تعيش فيه الرواية كلها .. فهذا الحلم حلم فى الدرجة الثانية .. اى انه حلم داخل الحلم الكبير وهو مفتاح لهذا الطريق .. وانا اقرر هنا ان الطريق هنا بداية جديدة لمرحلة ثالثة فى أدب نجيب محفوظ من ناحية الشكل ومن ناحية المضمون ايضا .

كان التاريخ فى روايات المرحلة الاولى . هو الثوب الذى البسه نجيب محفوظ الحاضر البشع الذى كان يعيش فيه فى الاربعينيات .. وهنا يعتبر الحلم هو الطرف الآخر لتاريخ ، هو الثوب الجديد الذى يدفع بالحاضر الى مستقبل أفضل وأوضح وأعمق ، المستقبل الذى يقوم على الماضى وعلى الحاضر مثل قمة الهرم التى تعتمد على قاعدة تقوم على اساس عميق فى أرض مصر ..

ومن النصوص التى تؤكد ان الطريق حلم كبير ، هذا النص الذى جاء على لسان كريمة وهى تدفع صابر الى قتل روحها المحور خليل ابو النجا

« عيشنا احنا عند المحجر نحلم »

ثم لا يجب ان ننسى أن التاريخ او فى رواية الطريق هو الحريف .. وان الليل يلعب فى الطريق دورا كبيرا خطرا .. دور جسدته كريمة بجسدها ..

عندما نعبر عن ادراك الحرية والكرامة والسلام تندفع فى الليل الى الحلم . هذا النص الذى رددته كريمة يؤكد ان الطريق يقوم على منطق الحلم وعلى ابعاده وعلى ميكانيزمه وانطلاقه بعيدا فى الواقع وفوق الواقع وذلك بهدف تحرير هذا الواقع والسيطرة عليه .. يقول نجيب محفوظ وهو يتحدث عن صابر بعد ان حلم هذا الحلم الذى سوف اورده بنصه بعد قليل : (وتعددت احلامه لدرجة اثارت ارعاجه وامتعاضه ، ويستيقظ فلازمه شعور بالتعب والكدر واحيانا يحل به ان الصمت يخنق العالم .. وكثيرا ما يذكره ذلك الصمت بالصمت المصاحب لارتفاع الموجة وتجمعها قبل أن تنفجر مرعدة مزبدة ، وفى الحلم يطل عليه وجه أبيه بالرغم من أن العشق اصبح المحور الذى تدور عليه حياته ، العشق الذائب فى احضان الظلمة ..

وهو يكره الاحلام لانها ترجعه الى قبره ماضيه من حياته الح فيها عليه الصرع حتى اوشك ان يهلكه ، وطاردته ذكريات المرض طويلا بعد شفائه منه فكان الصرع من اسباب اندفاعه في طريق الياس والقوة كسمعة امه سواء بسواء ، اما الصراع الذي يخوضه في الاحلام فيورثه عقب اليقظة انهاكا وحزنا فيمتلىء بافكار الفناء ، واذا تراءى اليه الاذان من الجامع القريب وهو على تلك الحال تضاعف حزنه .. »

هذا النص كان التعليق على الحلم الكبير الذي اسجله هنا واضعه امام النقاد وعلماء النفس لمحاولة تفسيره

« قالت كريمة

ـ اقترب الفجر ووجب الذهاب ..

« ورجع الى سريره بعد ان أغلق الباب وعلقها لاصقا به كالصبر ... واستلقى في ارتياح عميق فسرعان ما زحف عليه التخدير .. »

« الحلم »

« وقال انه يشعر لاول مرة بانه » يحتمل ان يستغني عن ابيه ولكن عندما لوح له الساوي بسماعة التليفون هرع اليه كالريح ثم هتف بخوف :

ـ الو .. ؟

واذا بصوت جاء يسأل

ـ صابر سيد صاحب الاعلان ؟

ـ نعم انا هو

ـ انا سيد سيد الرحيمي فماذا تريد ..

ـ لا بد من مقابلتك ..

ـ انا منتظرك بمحل قشكوان ، هل تعرفه ؟

ـ نعم ساكون عندك في خلال دقائق

واجال عينيه في المحل حتى راى رجلا جالسا الى مائدة الهام لم يشك لحظة في انه صاحب الصورة بل انه لم يكد يتعرف مدى الثلاثين عاما ، عدا انتشار الشيب سوالفه وانطباع تجاعيد غير ملحوظة الا عند التدقيق حول فيه وعند عينيه ، ونظر صوبه في رهبة حقيقية اذ وجده اضخم وافخم من اي خيال .. واتجه نحوه حتى خدش الرجل شخصيته فنهض لاستقباله مصافحا وصابر لا يحول عنه عينيه .

ـ صابر افندي

ـ نعم ، وسيادتك صاحب الصورة بلا ريب ..

وجلسا والرجل يقول :

ـ انت شاب في عز الشباب ، ويخيل الي اني رايتك قبل الآن ، اين يا ترى ...؟

ـ انا فى الاصل من الاسكندرية ، واعمل الآن فى القاهرة فى شارع العسقية وامشى كثيرا فى شارع كلوت بك وميدان المحطة وقد جلست اكثر من مرة الى هذه المائدة .

ـ لا شك انى رايتك فى احد هذه الاماكن ، فانا ازور الاسكندرية من آن لآن وامر كل يوم بميدان المحطة . وليس نادرا ، ان اجلس فى هذا المحل ..

فهتف صابر :

ـ هذا اعجب ما سمعت ؛ ولو انى لا اذكر انى رايتك من قبل الا بالتخيل ولكن متى اطلعت على الاعلان ؟

ـ منذ اول يوم ..

ـ حقا ولكنك لم تتصل بى الا اليوم !

ـ بلى .. ذلك أن الاعلان يدل على أنك لم تستطع الاهتداء الى الطريق العادى على حين انى رجل معروف جدا ولا ايسر من الاهتداء الى بيتى او مكان عملى ، لذلك تجاهلت نداءك ، ولما لمست الحاحك لم ار بدا من الاتصال بك ..

. هذا عجب حقا فانى لم اصادف احدا يعرفك ، ولا رقم لك فى الدليل .

ـ لندع ذلك الآن وخبرنى عما تريد ..

ـ الحق انى اريدك انت .. ولكن الا تلاحظ شيئا يا سيدى ...

ونظر فى وجهه متوقعا ان يلاحظ الشبه بينه وبين الصورة ولكنه خيب ظنه فقال بجزع :

ـ انظر الى وجهى ..

ـ ماذا فى وجهك ؟

وهنا سمع صوتا يهمس :

ـ استاذ صابر ..!

التفت نحو الصوت فرأى الهام واقفة ، فهض لمصافحتها ثم هم بتقديمها الى ابيه واذا بالرجل يمد لها يده قائلا :

ـ الهام .. كيف حالك ..

وقبلت الفتاة يده باحترام فهتف صابر :

ـ اذن انت تعرفينه ..

فسأله الرجل دون اكتراث لدهشته :

ـ خبرنى متى عرفت ابنى ؟

فصاح صابر ابنك .. ؟ رباه

وبسرعة غير متوقعة غادرت الهام المكان قبل أن يستطيع منعها وقال الرجل بهدوئه الذى لزمه طول الوقت .

ـ كثيرا ما اسمع كلاما لا معنى له ، ومنه ما يمسنى شخصيا ولكن لا اكترث لذلك ألبتة ، خبرنى الآن عما تريد ؟

جلس صابر فى حالة من الانحلال التام ويحركه اليه قدم له الصوره الجامعة بينه وبين أمه التى رأى نصفها فى الاعلان ووثيقة زواجه بأمه وشهادة ميلاده وشهادة تحقيق الشخصية .. ونظر الرجل فيها واحدة بعد أخرى ، وبحركة سريعة حاسمة راح يمزقها اربا .. صرخ صابر وانقض عليه يريد أن يضمه ولكن بعد قوات الاوان تمسك بشبة الجاكته وصاح به ..

ـ انت تمحو وجودى محوا فالويل لك ..

فعال الرجل دون أن يخرج عن هدوءه المثير :

ـ ابعد عنى ، لا تثرنى وجهك .. دجال كأمك ، ولا شأن لى بك .. اذهب ودينه عنه فتقهقر حتى اصطدمت راسه بحافة النوفيه .

.. ..

(أسمى الحلم)

... واسقط .

فتح عينيه وهو يتلمس بصعوبة فراى الحجرة الاثرية على ضوء النهار الذى يتسلل من الشباك . وادرك انه عار تماما تحت الغطاء ، فتذكر الليلة المطوية بجميع ملابساتها وشعر بارتياح ولكنه شعر لشدة انفعاله بالحلم باعياء وحزن ..»

وفى عنايه فنية وفى اناقة شكلية مهد تحت محفوظ لهذا الحلم بهذيان صابر وهو سكران وهو يذكر ايام النبى دانيال والأسكندرية .. يقول صابر فى لحظة سكره وبشوته :

« ومادا بعد ذلك الانتظار والجرى وراء المجهول فى الظلام » ويدفعه السكر وتتعلق به النشوة وهو يسير تحت البواكى القطنية ـ الى امه ـ « وامه كانت تدخن الجوزية وتحكم الرجال .. وعندما تجلس لمناقشته تجلس كملكة .. قالت له افعل ما تشاء ولكن لا تسرف فلا عذر لنا الا الفقر .. وقالت له اعشق كل يوم امراة ولكن لا تحمل لاحداهن من سلطان ملكك ..»

وفى قمة سكره وهذيانه يردد (ولكن اين سيد سيد الرحيمى) وهتف بصوته الملىء .. يا رحيمى .. ثم راح يدندن بالاغنية الاسكندرانية « ما تبطل النداوة وتعال عندنا »

كان صابر فى تلك الليلة التى بدات بالسكر وانتهت بالحلم قد اشترى زجاجة كونياك من بقالة الحربة وشرب واكل وسكر ثم عاد الى بيته فى منتصف الليل .. وبعد منتصف الليل وبعد أن دخن سيجارة فى حجرته الاثرية وبعد أن نام جاءت كريمه ـ وبعد كلام وحديث وما بعد الحديث .. من جنس واغواء ودفع الى الجريمة ، بعد هذا كله أحاطها بذراعيه ولكنها تزحزحت الى حافة السرير قائلة :

ـ اقترب الفجر ووجب الذهاب ..

ثم كان الحلم الذى سجلته لك هنا .

وجاءت ليلة الحلم بعد نهار قضاه فى البحث عن شارع النلبانه رقم ١٥ بشبرا .. وبعد أن حرق ساعات النهار فى البحث والسؤال عاد الى الفندق واذا بصاحب هذا البيت التليفونى يطلبه مرة أخرى ليقول له :

ـ حقيقة انك حمار

ودفعته كآبة مساء الخريف وخيبة الامل الى بقالة الحربة . يقول صابر وهو يناجي نفسه وهو يتذكر ملهى الكنار الليلى :

اين الله سقا ؟ هو عرف اسم الله ولكنه لم يشغل باله قط .. ولم تشده الى الدين علاقة تذكر .. ولا شهد البيس دانيال ممارسة مادة دينية واحدة فهو يعيش فى عصر ما قبل الدين... وفى فندق القاهرة احتل صابر الغرفة ١٣ ودفعته القاهرة ورقم ١٣ الى كريمة ودفعته كريمة الى الجريمة . ثم الى السجن أخيرا ومن السجن .. سجن البحث عن أبيه وسجن فقده لامه .. وسجن الفقر والوحدة والضياع الروحى والحضارى .. من هذا السجن انطلق الحلم الكبير .. الطريق..

وعندما غادر صابر الاسكندرية « تعلق بصره بالاسكندرية والقطار يرج الارض مبتعدا رآها مدينة هائلة من السحب وهواء باردا معبقا بمطلع نوفمبر يحوب شوارعها الاربعة شبه الخالية .. وودعها هى وأمه وذكريات ربع قرن من الزمان برفرة واحدة طويلة ساخنة ..

وناجى صابر نفسه ـ وكم كان يناجى نفسه ـ قبل ان يصل الى القاهرة .. وانت اليوم وحيدا بلا اهل ولا أصدقاء كأنك من جنس غريب ..

وعندما وصل الى القاهرة هاله الزحام فى محطة مصر فالح عليه شعوره بالوحدة وبحث عن فندق رخيص حتى وجد فندق القاهرة فى شارع السقية ذى البواكى وهو بمبنى قديم ترابى الجدران مكون من اربعة ادوار وعليه فوق السطح ودور باب مرتفع مقوس الراس كوجه بك يفتح على مدخل مستطيل ينتهى الى مدخل السلم ..

وقدم لنا نجيب محفوظ مع فندق القاهرة هذا الشحاذ الذى رآه وهو يدفع الى الفندق وقد جذبته فتاة فى عز الشباب كانت تجلس الى مكتب الفندق وكان الشحاذ يردد :

ـ طه ربه مديحى صاحب الوجه المليحى

النصارى واليهود

اسلموا على يديه

هذا الشحاذ هو النغمة السائدة فى حلم الطريق وهو يذكرنى بالشيخ درويش وبالشيخ متولى عبد الصمد وبالشيخ على الحبيدى .. وهؤلاء جميعا يمثلون عندى توقيع نجيب محفوظ على أعماله الفنية .

وحلم الطريق يبدأ بالقرافة بعد أن خرجت نسيمة عمران من السجن .. والسجن يلعب دورا ايجابيا خطيرا فى رواية الطريق .. اقترح محامى من معارف صابر وهو يساعده فى البحث عن ابيه أن يسأل عنه فى السجون .. وعندما رأى دهشة صابر من اقتراحه قال له :

ـ ولماذا لا .. !! السجن كالجامع مفتوح للجميع ، وأحيانا يدخله الانسان لسل فى اخلاقه لا امواجاً .

ويلعب التفاعل بين الحياة والموت دورا ايجابيا فى رواية الطريق فبينما تموت

سيمة عمران وصوت القرآن يتلى في غرفة المرحومة يتوافد المدعوون في شقة الجيران وتتراءى أنغام الموسيقى .

ويقول صابر : والآن ابن هي الحقيقة وابن الحلم ، أمك التي ما تزال تراقبها تتردد في أذنك قد ماتت ، وأبوك الميت يبعث في الحياة . وأنت المفلس المطارد بماض ملوث بالدعارة والجريمة تتطلع بمعجزة الى الكرامة والحرية والسلام ...

بدأ حلم الطريق .. بعد أن قالت سيمة عمران لابنها صابر بعد أن عادت الى البيت الذي كانت قد أعدته لابنها وبعد أن قضت في السجن خمس سنوات .

ـ أمك انتهت يا صابر .

وقالت له أيضا بعد أن حدثته عن أبيه وبعد أن أعطته شهادة الزواج وصورة الوفاة

ـ شيء يحدثني بأنه حي .. وبأنك اذا لم تيأس أو تتوان فسوف تعثر عليه .

ثم أغمضت عينيها بعد ذلك وتمتمت « اني تعبة جدا » وانسحب حوالي الساعة من صباح اليوم التالي بعد ليلة سهاد ممزقة بالفكر . وذهب الى حجرتها ليوقظها فوجدها ميتة .

ماتت سيمة عمران .. ودفع الموت صابرا الى هذا الحلم الطويل الذي يبدأ بالقراءة .. يبدأ الحلم بهذه الصورة الصائتة « تتردد من بعيد صوت كالعواء ثم دخل الحجرة طابور من العميان قطوفوا القبر في نصف دائرة ثم جلسوا القرفصاء وشعر بأعين كثيرة تحدق فيه أو تسترق اليه النظرات . لفط النساء ورائحة التراب وعرق الرجال وأنفاسهم الكريهة . والتربي ومساعده والسقاء وترتيل العميان كل هذا مهد الى هذا الحلم ..

الموت والليل والسجن هي عناصر هذا الحلم .. الموت في البداية .. والليل الذي دفعه الى الجريمة .. وهو الطريق .. والسجن في النهاية .. وفي السجن تجوهر الموت وتبلور الليل ... ورأى صابر ـ بلا واعيته أن يبحث عن رمز يتخلص به من الموت والليل والسجن فكان الاب .. سيد سيد الرحيمي .. رمز الكرامة والحرية والسلام ، والتثليث هنا رمز لحضارة مصر ـ ولتاريخ مصر .. وهذا الاسم المثلث سيد سيد الرحيمي يؤكد امامنا سيادة الاصل العريق الذي ينتمي اليه صابر ـ ونحن كلنا صابر ...

فاسم الرحيمي يشتق من الرحمة والرحمة انما جاءت من الرحم وهي تجسد علاقة الانسان بذوي الارحام وتأكيد معنى الرحمة انما هو تأكيد للعلاقة الحميمة بين الآباء والابناء .. وفي قمتها علاقة الانسان بأرضه وتاريخه وأبناء بلده ..

والواقع ان المصريين جميعا مصابون بمرض تاريخي .. فنحن جميعا نبحث عن هذا الاب .. عن هذا الاصل .. من هذا التاريخ .. الذي ننتمي اليه .. نحن جميعا نعاني من عقدة الاصل .. أو بفقدان الوعي التاريخي .. نحن نبحث عن جذور .. ونحن رغم حضارتنا العريقة الاصيلة نعيش عالة على حضارات عاشت

عالة على حضارتنا منذ قيامها نحن مضمون حتى يبحث عن الشكل ولهذا يكثر الحديث في هذه الايام عن الشكل والمضمون - فهذا الحديث يثبت ويؤكد هذا الانقسام وهذا الفصام .. فنحن نعيش في آن واحد وهو الحاضر فقط .. ولما كان الحاضر لحظة من لحظات نهر متدفق من زمان يضم الماضي والحاضر والمستقبل في كيان واحد .. كان العيش في حاضر منفصل عن ماضيه يشكل ازمة في الوعي وازمة في الروح وازمة في التعبير وازمة في الثقافة . وتكلمه واحدة يشكل هذا المرض التاريخي أو عقدة الاصل كما حاولت أن ادعوه .

ولما كان نجيب محفوظ يحاول ان يعبر بصدق وبعمق عن لحظتنا هذه فانه حاول بعد أن قطع هذا الطريق الطويل الذي بدأ بترجمة كتاب عن مصر القديمة عام ١٩٣٢ حتى رواية السمان والخريف أن يسجل هذا المرض التاريخي في حلم أسماه الطريق .. وجعل موضوعه البحث عن «الاب» وجعل اسم الابن هو صابر .. والصبر هو السمة البارزة للنفس المصرية - وجعل اسم هذا الاب سيد سيد الرحيمي - المثلث الرحمة الذي يجسد للابن الكرامة والحرية والسلام .. وكلما صابر - صابر الباحث عن ابيه .. ولهذا اعتبر أن أروع حركة سجلها الحلم الذي سجلته هنا هي حركة تمزيق الصورة الجامعة بين الاب والام ووثيقة زواج الاب والام وشهادة ميلاد صابر وشهادة تحقيق الشخصية .. مزقها سيد سيد الرحيمي لان هذه الاشياء كلها لا تقيم هذه الصلة الحميمة التي تصل بها صابر الى الحرية والكرامة والسلام .

الطريق قصيدة ملحمية تقدم لنا حلما واعترافا ومحاولة عبقرية للبحث عن مخرج وحل وبهذه الرواية تنتهي المرحلة السرابية التي عبرت عنها رواية السراب وتبدأ مرحلة جديدة واضحة كل الوضوح .. مرحلة الطريق الى اكتشاف انفسنا وفي اعتبار الطريق اشارة لنا بالعودة الى تاريخنا العملاق الذي بدأ بعصر ما قبل الاسرات حتى الآن .. ومحاولة توضيحه لانفسنا ولابنائنا وبناتنا في كل المراحل التعليمية عن طريق وسائل النشر الجماهيرية . علينا أن نكتشف ثراء هذا التاريخ المتدفق حتى يمكننا أن نعيشه ونعيش به كما نعمل مع نهر النيل سواء سواء .

ويوم أن نعرف أنفسنا بانفسنا فسوف نجد مع صابر الحرية والكرامة والسلام وسوف يلتئم الماضي والحاضر مع كل حي يطلق في دينامية نحو مستقبل .. والا فسوف نصبح مثل هذا الثعبان الذي فقد كل شيء من قوة ومال وبصر فتحول ..

وهذا الوعي الذاتي سوف يحررنا من الخوف والجوع والماضي والموت .. وحتى لا نعيش في ذل الرغبة الحائسة وذل البحث الخائب .. وذل الخوف من الذل .

علينا ان نجد الطريق الى قدس اقداسنا .. وهو طريق يريد منا كل الشجاعة وكل الصبر وكل الايمان وكل الثقة .. وعلينا أن نتخذ من كل عقبة فرصة للاستمرار وللوصول الى هذا الهدف العظيم وللوصول الى الوعي الذاتي لنرى الطريق الى العمل لانفسنا ومع الآخرين .. ولهم ..